المبحث الأول
بناء المقالة

العنوان:

يشكل العنوان عنصراً أساساً في النص الأدبي ولا سيما النص النثري، إذ إنه يمكن للشعر الاستغناء عنه[1]، فالعنوان هو المفتاح الإجرائي الأول الذي يمكن من خلاله الدخول إلى العالم الداخلي للنص الأدبي لكشف أسراره واستكناه دلالاته وبيان جمالياته، كما يعد العنوان مفتاحاً محركاً لعجلة النص، وله صلة القوية بالكاتب والمتلقي[2].

لقد ازدادت أهمية العنوان من حيث هو نص صغير مع نشأة الشكلية والبنيوية والسيميائية، إذ إن العنوان يؤدي " وظائف شكلية وجمالية ودلالية تعد مدخلاً لنص كبير كثيراً ما يشبهونه بالجسد رأسه هو العنوان "[3] ويمثل العنوان في السيميائية المفتاح الأساسي الذي يتسلح به المحلل للدخول إلى أغوار النص العميقة لاستنطاقها وتأويلها فهو يبين النص على المستويين الدلالي والرمزي[4].

ويعرف ليو. هـ. هوك العنوان بأنه "مجموعة العلامات اللسانية التي يمكن أن تدرج على رأس نص لتحدده أو تدل على محتواه العام وتغري الجمهور المقصود بقراءته "[5]. ومن هذا التعريف يمكن أن تتضح ثلاث وظائف للعنوان هي:

1- تعيين النص.
2- تحديد المضمون.
3- التأثير في الجمهور[6].

وهناك من الباحثين من حدد وظائف العنوان من خلال الاعتماد على وظائف اللغة التي قال بها رومان ياكوبسون وهي: الانفعالية والإنتباهية والمرجعية والإفهامية

---

(1) ينظر: السيميوطيقا والعنونة، جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، بيروت، المجلد (25)، العدد(3) لسنة 1997: 98. وينظر: المدخل إلى علم الأسلوب، شكري محمد عياد: 75. الأسلوبية ونظرية النص، د. إبراهيم خليل: 52.

(2) ينظر: المقالة الأدبية في أدب احمد أمين: 155.

(3)شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق، محمد الهادي المطوي، مجلة عالم الفكر، بيروت، المجلد (28)، العدد (1) لسنة 1999: 455.

(4)ينظر: السيميوطيقا والعنونة: 96.

(5) نقلاً عن: شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق: 456.

(6) ينظر: مفهوم الرواية السيرية، د. عمر محمد الطالب، مجلة صوت، العدد (1) لسنة 1997: 21.

والميتالغوية والشعرية[1].

وبهذا تكون وظائف العنوان ستاً ثم يضيف إليها هنري ميتران الوظيفتين التحريضية والأيديولوجية[2]، ولقد حدد جيرار جينت أربع وظائف للعنوان هي:

1. تحديد هوية النص.
2. الوظيفة الوصفية: هي وصف النص بإحدى خصائصه الموضوعية أو الشكلية.
3. الوظيفة الدلالية الضمنية أو المصاحبة (الإيحائية).
4. الوظيفة الإغرائية[3].

ولا يخرج شارل جريفال عن تلك الوظائف فهو يرى في وظائف العنوان في ثلاثة أمور هي:

1- التحديد.
2- الإيحاء.
3- منح النص أكثر قيمة[4].

أما رولان بارت فيركز على ما يسميه بالوظيفة الاغرائية للعنوان إذ يرى أنه يفتح شهية المتلقي للقراءة[5].

ولأهمية العنوان بوصفه علامة بارزة في تحديد النص أولاً، والكشف عن مجموعة من الدلالات الرمزية المنبثقة عنه ثانياً[6] فقد كان العنوان ولا يزال من المواقع الحساسة التي يقف عندها المؤلفون كثيراً قبل أن يختاروا عناوين نصوصهم الأدبية[7].

ومحمود درويش شأنه شأن كل أديب تشغله مسألة اختيار العنوان. ومن الملاحظ أن عنوانات مقالاته تخضع لطبيعة الموضوع، فهو يراعي ذلك في اختيار للعنوان ولاسيما عنوانات مجموعاته التي ضمت مقالاته:

---

(1) ينظر: قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون: 33.
(2) السيميوطيقا والعنونة: 100.
(3) نقلاً عن: شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق: 459- 460.
(4) ينظر: تقنيات التشكيل البصري في الشعر العربي المعاصر، سامح الرواشدة، مجلة مؤتة، المجلد (12)، العدد(2) لسنة 1997: 506.
(5) ينظر: الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل، رضا بن حميد، مجلة فصول، المجلد (15)، العدد(2) لسنة 1996: 100.
(6) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل: 303.
(7) ينظر: شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق: 457. وينظر: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، محمد فكري الجزار: 39. دراسات في علم النفس الأدبي، حامد عبد القادر: 16- 17.

1- شيء عن الوطن.
2- يوميات الحزن العادي.
3- وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام.

جاءت المجموعة الأولى لمحمود درويش بعنوان (شيء عن الوطن) فالمبتدأ (شيء) نكرة للتعبير عن الشيء الصغير ولكن معناه يعني الشيء الكثير، و(عن الوطن) شبه جملة (جار ومجرور) في محل رفع خبر للمبتدأ (شيء) فيكتمل العنوان بأنه ستكون المجموعة عن أشياء كبيرة ترتبط بالوطن عبر عنها بـ (شيء).

وتحتوي هذه المجموعة على ثلاثة أقسام: شمل القسم الأول على إحدى عشرة مقالة. أما القسم الثاني فقد شمل اثنتي عشرة مقالة في حين شمل القسم الثالث على خمس مقالات ليكون مجموع المقالات ثماني وعشرين مقالة. ونلحظ أن العنوان الرئيس جاء عنواناً فرعياً لأول مقالة في المجموعة، وقد جاء العنوان ليوضح المضمون وهو خواطر الكاتب وانفعالاته تجاه الأحداث والمواقف التي حدثت في تلك المدة التي سبقت حرب تشرين (1973).

وتحتوي مجموعته الثانية (يوميات الحزن العادي) على خمس عشرة مقالة من بينها مقالة (يوميات الحزن العادي) فالعنوان يوحي بتلك اليوميات التي يعيشها الشعب الفلسطيني التي يملأها الاحتلال والعنف والاضطهاد وضياع الهوية الفلسطينية والحقوق الإنسانية، فالأيام هي الأيام نفسها التي نعيشها من حيث الزمن.

أما البنية اللغوية للعنوان فهي تعتمد على دال جمع نكرة. وقد منحه دلالة أكثر مما لو عُرف لأنّ دالة (يوم) بالتنكير تدل على مطلق الزمن ماضيه وحاضره ومستقبله أي أنه اسم جنس جامع لكل الأيام وقد جاء بصيغة الجمع. فقد كانت العرب تمسي الحروب أياماً كتقسيم معركة القادسية إلى أربعة أيام هي: (يوم أرماث، ويوم أغواث، ويوم الهرير، ويوم القادسية)[1] كما ورد ذكر يوم في القرآن الكريم:

ٹ ڈ چ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ں چ[2]

ٹ ڈ چ ف ف ڤ ڤ ڤ ڤ چ[3]

(1) ينظر: عنوان القصيد في شعر محمود درويش: دراسة سيميائية، جاسم محمد جاسم، رسالة ماجستير: 98.
(2) سورة الروم: الآية:55.
(3) سورة الشعراء: الآية:88.

ٹ ڈ چ ی ی ی □ □ □ □ □ چ[1]
ٹ ڈ چ ئ ئ ئ ئ ئ ی ی ی ی چ[2]

ويلاحظ في الآيات الكريمة السابقة أن القرآن الكريم يشدد على تنكير دال (يوم) مخصصا إياه بيوم القيامة التي توحي بالتهويل والترهيب.

أما معنى الأيام فيأتي من خلال المضاف إليها وهو الحزن الذي جاء معرفاً، لأنه أصبح حالة معرفة لدى كل فلسطيني إذ إن يوميات الفلسطيني متجددة بالحزن ففي كل يوم ومع إشراقة الشمس على أرض فلسطين يتجدد الحزن من الظلم الصهيوني أولاً ومن الواقع العربي المشتت ثانياً، فالأحزان بالنسبة للفلسطيني أصبحت عادية، ومن هنا جاءت تسمية تلك المجموعة بـ (يوميات الحزن العادي).

تحمل المجموعة الثالثة عنوان (وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام) الذي ابتدأ بالمفعول المطلق (وداعاً) لفعل محذوف تقديره (أودع). أما أيتها الحرب (نداء) في حين جاءت لفظتا (الحرب، السلام) معرفتين لأن الأولى باتت معروفة لدى كل فلسطيني على نطاق الواقع أما الثانية فمعرفة على نطاق الأماني والأحلام.

تحتوي المجموعة الثالثة على ثلاثة أقسام: جاء القسم الأول بعنوان (حصان يحب غزالة) ويحتوي على ثلاث مقالات، أما القسم الثاني فقد جاء بعنوان (صباح الخير أيها الفرح) ويحتوي على إحدى عشرة مقالة في حين جاء القسم الثالث بعنوان (ماذا فعلت بالخريف يا سرحان) الذي يحتوي على إحدى عشرة مقالة ومن بينها مقالة (وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام).

ومن الملاحظ أن تلك المقالات كتبت في مراحل الانتظار والانفجار بعد حرب تشرين (1973) ويوحي العنوان بان الوضع القائم في فلسطين مشتت فلا حرب من أجل تحرير الأرض وتحرير الذوات الفلسطينية من ظلم الأعداء اليهود، ولا سلام يحفظ للفلسطينيين حقوقهم في العيش بسلام في أرضهم.

ومن استعراض عنوانات مقالات محمود درويش ومدى ترابطها بالموضوع يتبين ما يأتي:

1. يقوم العنوان في المجاميع الثلاث بدور الرئيس، وتأتي عناوين المقالات لتشكل عناوين ثانوية التي تتفرع بدورها إلى عناوين ثانوية أخرى بما يمكن أن يسمى بـــ (التشجيرة العنوانية)[3]، ومن ذلك مقالة (ثلاث كلمات على

(1) سورة الرحمن: الآية:39.
(2)سورة ق: الآية:30.
(3) ينظر: عنوان القصيد في شعر محمود درويش: 46.

إيقاع واحد) ضمن المجموعة الأولى (شيء عن الوطن) إذ قسمت المقالة إلى ثلاث كلمات هي: (الكلمة الأولى) و(الكلمة الثانية) و(الكلمة الثالثة).

ومن ذلك أيضاً مقالة (ثلاث بطاقات من حيفا)التي تقسم إلى ثلاث عنوانات ثانوية هي: (مقهى صغير على الشاطئ) و(الزنزانة) و(الشارع لي) بحيث يصبح كل عنوان مقالة لوحدها تشكل موضوعاً آخر يختلف عن الموضوع الآخر.

ففي مقالة (مقهى صغير على الشاطئ) يتأمل الكاتب الشاطئ وينتقي ذكرياته إذ يقول:((**وأنا في المقهى انتقي ذكرياتي كما أشاء. إنها تجلس أمامي مثل عنقود العنب أختارها حبة حبة، والقي بالفاسد منها عبر النافذة المفتوحة**))[1].

أما العنوان الثاني (الزنزانة) فيختلف عن العنوان الأول إذ إن المكان مغلق معادي ولكنه مفتوح وتشكل المقالة حواراً ذاتياً يقدمه الكاتب بينه وبين السجان، فالسجان قد وضع في تقديره أن السجن معادل لموت الفكر والأدب الإنساني والوطني والقومي عند من يدخله. ومن خلال المحاورة بين السجين (الكاتب) والسجان تظهر خيبة أمل السجان في تحقيق غايته:

((**حدث هذا.. يحدث هذا أحياناً.. يحدث هذا الآن: أن تركب حصاناً في زنزانة وتسافر. يحدث أن: تسقط جداران الزنزانة، وتصير آفاقا لا حدود لها:**

- **ماذا فعلت بالحائط؟.**
- **أعدته إلى صخور.**
- **ماذا فعلت بالسقف؟**
- **حولته إلى سرج.**
- **ماذا فعلت بالقيد؟**
- **حولته إلى قلم.**

غضب السجان، وضع حداً للمناقشة. قال إنه لا يحب الشعر، ثم أغلق باب الزنزانة))[2].

وتأتي الشجيرة الثالثة (الشارع لي) لتكشف عن وضعية الشعب الفلسطيني في أرضه إذ يقتل في كل يوم من دون حرب، ويدعو الكاتب أمته لكي تنهض وتعيد أمجادها فيقول:

((**ليست الحرب نزهة ولا احتفالاً، ولكننا كنا نُقتل بلا حرب، ومن قلة الحرب. لم تبتهج أم بولادة طفل، كما تحتفل الأرض الآن بميلاد الأمة عشرات السنين**

---

(1) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 74.
(2) المصدر نفسه: 75.

المكبوتة تستيقظ الآن من الحرمان..))[1].

2. يضع الكاتب الموضوع في اعتباره عند اختيار العنوان بإخضاع الاختيار للموضوع وغايته من تناوله ولاسيما في مقالاته الذاتية التي تتناول شيئاً من حياته الخاصة فانه يعمد إلى العنوانات الدالة مباشرة على علاقة الموضوع به من مثل: (هكذا أعيش وأناضل في إسرائيل)[2] و(حياتي وقضيتي وشعري)[3] و(القمر لم يسقط في البئر)[4] و(يوميات الحزن العادي)[5]و(محاولة رثاء بركان)[6] و(أكثر من كلمات)[7] و(أنيس صايغ إلى اللقاء)[8].

وإذ كانت مقالات محمود درويش ذات موضوعات سياسية انتقاديه ينتقد فيها السياسة الإسرائيلية والأمريكية، فإنه يختار لها عنوانات تحمل دلالات انتقاديه من مثل: (إعلان حرب)[9] و(إلى أين)[10] و(أمريكا هناك أمريكا هنا)[11] و (تلك الحرب. هذه الحرب)[12] و(الجنود كانوا أطفالاً)[13]. ويلاحظ من هذه العنوانات أنها ترتبط ارتباطاً مباشراً وواضحاً بالموضوع وتهيئ الذهن لاستقباله.

---

(1)وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 76.
(2) ينظر: شيء عن الوطن: 211- 239.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 239- 287.
(4) ينظر: يوميات الحزن العادي: 29- 48.
(5) ينظر: المصدر نفسه: 71- 104.
(6) ينظر: وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 17- 24.
(7) ينظر: المصدر نفسه: 25- 32.
(8) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (66) لسنة 1977: 2.
(9) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العددان (74- 75) لسنة 1978: 2.
(10) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العددان (68- 69) لسنة 1978: 4- 5.
(11) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العددان (92- 93) لسنة 1979: 5- 6.
(12) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (38) لسنة 1974: 4- 5.
(13) ينظر: شيء عن الوطن: 123- 138.

وجاءت المقالات الأدبية والنقدية مستقاة من جوهر الموضوع النقدي، ومثال ذلك:
(هذا الاهتمام يهمنا)[1] و(أنقذونا من هذا الحب القاسي)[2] و(لقاء طشقند)[3] و(لماذا يجب أن نلتقي)[4] و(مقابلة أدبية)[5] و(لمن تقرع الأجراس)[6] و(الكتابة في درجة الغليان)[7].

جاءت البنية التركيبية على التقاء حر غير مقيد بشكل أو تركيب أو قاعدة نحوية تفرض على الكاتب شكلاً، ومن ثم فإن جميع الإمكانيات التي تقدمها اللغة قابلة للانبناء عنواناً من دون أية قيود؛ لذلك يبنى العنوان على هيئة حرف أو كلمة أو شبه جملة أو جملة تامة، وقد يكون أكثر من جملة[8] وذلك يعني أن لا شيء يحصر طول العنوان من الناحية النظرية[9].

يمكن تحديد سمات البنية اللغوية لمقالات محمود درويش بما يأتي:

1- مما يثير الاهتمام استخدامه لأدوات الاستفهام في تشكيل العنوان لإثارة المتلقي للتواصل والبحث عنا يثير التساؤل؟ وعلى ذلك جاءت العنوانات الآتية:

---

(1)ينظر: شيء عن الوطن: 17- 24.
(2)ينظر: المصدر نفسه: 25- 35.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 36- 42.
(4)ينظر: المصدر نفسه: 53- 61.
(5)ينظر: المصدر نفسه: 315- 349.
(6)ينظر: المصدر نفسه: 157- 160.
(7)ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (53) لسنة 1974: 33- 41.
(8) شعرية عنوان كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق: 458.
(9) السيميوطيقا والعنونة: 106.

(هل تكون المرأة نصف حبلى؟)[1] و(لمن تقرع الأجراس؟)[2] و(لماذا يجب أن نلتقي؟)[3] و(كيف أضعت الخريف؟)[4] و(إلى أين؟)[5].

2- نادراً ما تقتصر العناوين على لفظ أو لفظين ومثال ذلك: (الحصار)[6] و(يا احمد)[7] و(المحطة)[8] و(انتفاضة)[9] و(في الجنوب)[10] و(إلى أين)[11] و(الملف المفتوح)[12].

3- الغالب على عناوين تلك المقالات الإطالة في العنوان على شكل جمل أسمية: (القمر لم يسقط في البئر)[13] و(حالة انتظار)[14] و(غريب عن العالم. ذهب إلى العالم)[15] و(الفرح عندما يخون)[16] و(من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً)[17] و(يا احمد)[18] و(دفاع عن الشجر)[19] و (الجبنة الصفراء)[20] و (رسالة إلى زنجي)[21] و(العرب قادمون)[22] و(أزرق..أزرق)[23]

---

(1) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (15) لسنة 1972: 244- 250.
(2) ينظر: شيء عن الوطن: 157- 160.
(3) ينظر: المصدر نفسه: 36- 42.
(4) ينظر: وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 84- 89.
(5)ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العددان (68- 69) لسنة 1977: 4- 5.
(6) ينظر: شيء عن الوطن: 43.
(7)ينظر: المصدر نفسه: 105.
(8)ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (39) لسنة 1974: 4.
(9) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (56) لسنة 1976: 5.
(10)ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (77) لسنة 1978: 6.
(11)ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العددان (68- 69) لسنة 1977: 4.
(12) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (78) لسنة 1978: 4.
(13) ينظر: يوميات الحزن العادي: 27- 48.
(14)ينظر: المصدر نفسه: 7- 62.
(15) ينظر: المصدر نفسه: 169- 178.
(16) ينظر: المصدر نفسه: 129- 152.
(17) ينظر: المصدر نفسه: 105- 128.
(18) ينظر: شيء عن الوطن: 105.
(19) ينظر: المصدر نفسه: 90- 94.
(20) ينظر: المصدر نفسه: 200- 201.
(21) ينظر: المصدر نفسه: 161- 166.
(22) ينظر: وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 35- 37.
(23) ينظر: المصدر نفسه: 43- 45.

و(الحقيبة والمفتاح)[1].

4- نادراً ما يكون العنوان على شكل جملة فعلية: (نحترق من ناحية البحر وننمو من ناحية الأطفال)[2](أنقذونا من هذا الحب القاسي)[3].

المقدمة (الاستهلال):

الاستهلال جزء مهم من أجزاء النص النثري يقصد به " بدء الكلام، ويناظره في الشعر المطلع، وفي فن العزف على الناي: الاستفتاحية، فتلك كلها بدايات تفتح السبيل إلى ما يتلو"[4] فالاستهلال إذن بدء النص وافتتاحه، وهو أول ما يقع في السمع من الكلام[5]. وعلى الكاتب الاعتناء بالاستهلال وتحسينه شأنه شأن الشاعر لأهميته ودوره في جلب انتباه القارئ وشده إلى الموضوع [6] ولأن وظيفته الجوهرية هي أن يبين ما هي الغاية أو الغرض من النص الأدبي[7].

يعد الاستهلال سمة مهمة من سمات النص الأدبي ولاسيما في القصيدة العربية إذ سميت بعض القصائد العربية التي لم تعنون باسم البيت الأول منها إي أن الاستهلال أصبح عنوانا للقصيدة كما في قصيدة (قفا نبك) لأمرئ القيس[8] وعلى ذلك فالاستهلال هو وسيلة الاتصال الأولى بالسامعين التي تهيئ نفوسهم وتعدهم لاستقبال الموضوع، فعلى قدر نجاح الكاتب في افتتاح الموضوع يكون نجاحه بالنسبة للاستقبال لدى المتلقي.

ولاستهلال المقالة أهمية خاصة من وجهة نظر الكاتب والقارئ، إذ إن القارئ ـــ هو المقصود في كل عمل أدبي ـــ لن يقبل على قراءة المقالة بلذة وفهم إلا إذا طالعته بادئ ذي بدء بصورة جذابة مشوقة تتسم بأسلوب طبيعي سلس، وهو أسلوب المسامرة والحديث العادي، وبفكرة طريفة متآلفة تسترعي عناية وتجتذبه إليها بقوة وإغراء[9]. ويمكن أن يكون مدخل الاستهلال في المقالة ـــ جملة أو جملتين ـــ يؤلفها

---

(1) ينظر: المصدر نفسه: 59- 61.
(2) ينظر: مجلة شؤون فلسطينية، العدد (36) لسنة 1974: 15.
(3) ينظر: شيء عن الوطن: 25.
(4) فن الخطابة، أرسطو، ترجمة: عبد الرحمن بدوي: 235.
(5) ينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد على البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: 494. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبن الأثير، تحقيق: احمد محمد الحوفي وبدوي طبانة: 3/ 98.
(6) الاستهلال فن البدايات في النص الأدبي، ياسين النصير: 22.
(7) المصدر نفسه: 38.
(8) عنوان القصيدة في شعر محمود درويش: 32.
(9) فن المقالة: 126.

الكاتب وهو تحت عبء الأفكار والصور التي تختزنها ذاكرته الفنية والاجتماعية والثقافية[1].

جعل محمود درويش الدفاع عن الوطن مرادفاً للدفاع عن الشجر إذ جعل الوطن مرادفا للشجر الذي يشكل في مقالاته منعطفا آخر في سبيل تكوين نصه الثوري فضلاً عن أن التشبيه بين الشجر والإنسان في التحليل العلامي يؤشر علاقة طبيعية بين كل الكائنات الحية من حيث أن كل منها يمر بمجموعة من التحولات فالشجر تمثل الخضرة والاستقرار والثبات والارتفاع والقوة والتماسك، وكذلك يشترك الإنسان معها.

ففي مقالة (دفاع عن الشجر) جاءت المقدمة ملائمة للعنوان بحيث أن كليهما يهيئ القارئ للدخول إلى غاية النص الأدبي إذ يقول:((**ما جئت لكي أعد فضائل الشجر لأنها اكبر من أن تحصى، وأجمل من أن تمجد، وأشهر من أن تقدم!**))[2].

ومن خلال استقراء مقالات محمود درويش نرى أن البنية اللغوية للاستهلال تقوم على الجملة الاسمية أو الفعلية. ومن الملاحظ أن الغالب في استعماله الجمل الفعلية أو الصيغ المشتقة (اسم الفاعل، اسم المفعول، صيغة المبالغة...) إذ تعطي النص حرية التوسع والإحالة والحركة لأن الأفعال بطبيعتها مولدة خلاقة متحركة على العكس من الاسم الجامد الذي يتحدد بالمسمى ويحتاج إلى فعل يحركه ففي مقالة (دم.. دم.. دم) وردت الجملة الأولى على الشكل الآتي:

((**قرأت، بكثير من التأثر، رواية تعتبر بعض الأوساط الثقافية في العالم عدم قراءتها، حتى الآن، وهناً في مواكبة روح العصر..**))[3] ويلاحظ في اتصال الفعل بضمير المتكلم (الكاتب) إضفاء الفاعلية الذاتية على جو النص.

جاءت المقدمة في مقالة (أزرق.. أزرق) على الشكل الآتي: ((**رأيت مياها كثيرة في حياتي، ولكنني لم أر ماء في مثل هذه الزرقة الداكنة**))[4].

ويأتي الاستهلال في مقالة (الكتابة في درجة الغليان) على النحو الآتي: ((**جئت أروي قصتي لأوسع دائرة العلاقة**))[5].

وفي مقالة (الزنزانة) وردت الجملة الأولى على الشكل الآتي:؟((**يحدث هذا..**

---

(1) المقالة الأدبية في أدب احمد أمين: 159.
(2) شيء عن الوطن: 90.
(3) المصدر نفسه: 183.
(4) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 43.
(5) مجلة شؤون فلسطينية، العدد (35) لسنة 1974: 33.

يحدث هذا أحيانا.. يحدث هذا الآن.. أن تركب حصانا في زنزانة وتسافر..))[1].

وفي مقالة (نار على جبل!) وردت الجملة الأولى على الشكل الآتي: ((**نادانا جرح في يركا.. والجرح هناك يستحيل إخفاؤه لأنه نار على رأس الجبل..))**[2]. وهنا اتصل الفعل بضمير دال على الجماعة لتوسع إمكانية الكاتب على توليد صور وحركات داخل فكرة الموضوع كما أن (نا) المتكلمين تدل على المشاركة في الأحداث.

وفي مقالة (شيء عن.. أمنون لين !) كان استلالها بالشكل الآتي: ((**شئنا، أم لم نشأ، فإن السيد امنون يجمع المجد من أطرافه..))**[3]. وفي مقالة (لمن تقرع الأجراس؟) وردت الجملة الأولى من الاستهلال على وفق الآتي: ((**يروقني أن أعلن إعجابي العميق بشعار الغضب الساطع الذي عم أمريكا..))**[4] وياء المتكلم المتصلة بالفعل تدل على المشاركة الوجدانية للكاتب في الأحداث التي تجري لرفع قوة التأثير والإثارة لدى المتلقي.

وهكذا فإن أغلب مقدمات مقالاته ابتدأت بجملة فعلية حتى تلك المقدمات التي تبتدئ باسم أو شبه جملة فإن الجملة الفعلية التي تليها هي التي تخبر عنها أو تفسرها لإضفاء الحيوية والحركة للمقدمة، ومن ذلك ما جاء في مقالة (الملف المفتوح):

((**الملف. الملف يفتحون ولا يفتحون ولا حديث إلا حديث الملف الذي فتح ولا يفتح**))[5] وفي مقالة (ذاهب إلى العالم. غريب عن العالم) جاء: ((**في ساعة متأخرة من الليل يذهب العالم إلى غرفة النوم**))[6]. وفي مقالة (إلى أين) تبدأ المقدمة بالآتي: ((**إلى أين. بعدما قيل لواشنطن ما قيل..**))[7].

العرض (حسن التخلص)

يقصد به كيفية الانتقال من معنى لآخر كالانتقال من المقدمة إلى الموضوع ومنه إلى الخاتمة من دون قطع وحسن التخلص من المصطلحات القديمة التي شغلت البلاغيين العرب فيقول ابن الأثير: " أما التخلص فهو أن يأخذ المؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبين هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سببا إليه،

---

(1) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 75.
(2) شيء عن الوطن: 115.
(3) شيء عن الوطن: 131.
(4) شيء عن الوطن: 151.
(5) مجلة شؤون فلسطينية، العدد (78) لسنة 1978: 4.
(6) يوميات الحزن العادي: 171.
(7) مجلة شؤون فلسطينية، العددان (68- 69) لسنة 1977: 4.

فيكون بعضه آخذ برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر بل يكون جميع كلامه كأنما افرغ إفراغاً"[1].

ويعرف تصميم المقالة بأنه " ذلك التصوير البنائي للموضوع الذي يرهص بالنهاية منذ البداية ولا يرفع عينه عنها، وهو في أي جزء من الأجزاء يلفت إلى الأجزاء الأخرى إلى أن تكشف العبارة الأخيرة عن كنه العبارة الأولى وتبرز وجودها دون أن تحس بأي فتور"[2].

وهكذا فإن الكاتب يبدأ بعرض موضوع مقالته بعد أن مهد له بالاستهلال وبعد أن يطمأن الكاتب على كسبه اهتمام قارئه يأخذ في عرض تجربته معبرا عن أثرها في نفسه وحسه تعبيراً يميل إلى المسامرة المحببة التي تعتمد في معظم أحوالها على ما يذكره الكاتب من مواقف طريفة أو سخرية أو خفيف في تدفق وعفوية تحقق الألفة والمشاركة الوجدانية[3].

وإذا أمعنا النظر في مقالات درويش نجد البراعة في التخلص والانتقال إحدى السمات الفنية التي تميزت بها، فقد أحسن الانتقال من الاستهلال إلى الموضوع بدقة متناهية وصورة فنية رائعة فكان خروجه وتدرجه في الانتقال من كلام لآخر من دون قطع بحيث لا يشعر القارئ أو السامع بذلك.

ففي مقالة (نحن نقاتل.. وهم يقامرون) بعد أن قدم محمود درويش للفكرة الرئيسة (الحرب) مقدمة قصيرة إلى حد ما تعرض فيها لهزيمة العدو (الصهيوني) إذ يقول: ((**أن تطول الحرب.. أن تطول ـ معناه ـ إننا قادرون على هزيمة العدو، بعدما هزمنا الهزيمة في نفوسنا منذ اللحظة التي احتكمنا فيها إلى النار.. النار هي القرار الوحيد الذي يؤدي تنفيذه إلى استرجاع شرفنا الإنساني من مهانة ربع قرن.. النار هي المحكمة الوحيدة الجديرة بأن تشرع العدالة بيننا وبين مثل هذا الطراز من الأعداء**))[4].

فالكاتب قد أحسن الانتقال من الاستهلال إلى موضوعه بعبارة (احتكمنا فيها إلى النار) فهذه العبارة نوحي بأن الكلام الذي يأتي بعدها هو الموضوع الأساس للمقالة.

ومحمود درويش قد مهد إلى قرار القتال والجهاد في سبيل تحرير الوطن؛ لأنه يدرك بأن العدو سوف يهزم بعد أن استطاع العرب توحيد أنفسهم بالإرادة

---

(1) المثل السائر: 3/ 21.
(2) فن المقالة: 120.
(3) فن المقالة الذاتية في الأدب العربي الحديث: 75.
(4)وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 53.

والعزيمة المادية والمعنوية.

وهذه المقالة أخرى يخلص فيها الكاتب إلى موضوع ببراعة من دون قطع الكلام إذ يقول: ((**تحيط خاصرتها بالألغام وتنفجر. ولا هو موت ولا هو انتحار. إنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة**))[1]، فبراعة التخلص واضحة بخروج الكاتب من الاستهلال إلى موضوعه الأساس بعبارة (أنه أسلوب غزة) إذ إنها تدل على تهيؤ الكاتب لعرض موضوعه.

وبعد ذلك التخلص يعرض الكاتب موضوعه وهو (صمود غزة بوجه الأعداء) فالأبطال في غزة يقاومون الأعداء منذ وقت طويل فاجئوا العدو الصهيوني بهذا الصمود والمقاومة:

((**منذ أربع سنوات، ولحم غزة يتطاير شظايا قذائف، لا هو سحر، ولا هو أعجوبة. إنه سلاح غزة في الدفاع عن بقائها. وفي استنزاف العدو**))[2].

لا تقل المقالات التي تميزت بأسلوبها الساخر للموضوع أهمية عن المقالات الجدية من حيث حسن التخلص والعرض ففي مقالة (الطبل.. الزمر.. والحكم العسكري) جاءت المقدمة بالشكل الآتي: ((**لست من هواه جمع الطوابع أو التواقيع أو الصور أو علب الكبريت الفارغة، أو خصلات شعر النساء.. ولكنني أريد هواية جديدة لم يسبقني إليها أحد.. وأخيراً وجدتها: سأجمع طرائف الحكم العسكري في بلادنا.**))[3].

نلاحظ أن الكاتب أحسن الانتقال إلى غرضه عندما قال: (سأجمع طرائف الحكم العسكري) التي تشير إلى أن ما يليها سيكون موضوع المقالة. ومن الواضح أن خروج الكاتب وانتقاله من معنى لآخر في المقالة كان متدرجاً مترابطاً آخذ بعضه برقاب بعض من دون قطع في الكلام.

الخاتمة

هي آخر النص النثري لا نهايته. وهي النتيجة التي يصل إليها الناثر فيجعلها ملخصاً لموضوعه أو محاولة لاجتذاب عواطف السامعين وفكرهم إلى رأيه[4].

وقد تحتاج المقالة إلى مقدمة وقد لا تحتاجها، ولكن لا بد لها من نتيجة أو

---

(1) يوميات الحزن العادي: 163.
(2) المصدر نفسه: 163.
(3) شيء عن الوطن: 144.
(4) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس: 85. وينظر: من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية: 139.

خاتمة[1] وعلى ذلك يرى محمد يوسف نجم أن الخاتمة هي " ثمرة المقالة وعندها يكون السكوت، فلا بد أن تكون نتيجة طبيعية للمقدمة والعرض واضحة صريحة، ملخصة للعناصر الرئيسة المراد إثباتها، حازمة تدل على اقتناع وتعيين، لا تحتاج إلى شيء آخر لم يرد في المقالة"[2].

ولابد لكاتب المقالة أن يعتني بخاتمة نصه عناية لا تقل عن اهتمامه بالاستهلال بحيث تأتي على نسق واحد فضلاً عن ترابط أجزاء المقالة بحيث تصبح نصاً متسلسلاً منذ البدء حتى النهاية.

ومن خلال استقراء مقالات محمود درويش نجد أن الخاتمة كالاستهلال اتسمت بالتنوع والاختلاف على وفق ما يقتضيه المقام، ففي مقالة (الجبنة الصفراء.. والوطن) يلاحظ أن الكاتب يحافظ على الترتيب بين العناصر البنائية من المقدمة التي يستهلها بقوله:

((جدي في مثل هذا الشهر، يعيش على أعصابه. يكف عن الكلام، ويكثر من الإصغاء للمذياع، ومن التدخين. كان ينتظر كلمة من هيئة الأمم المتحدة... كان ينتظر وعداً صادقاً يأخذه إلى أنقاض بيته القديم..))[3].

وقد تعرضت المقالة إلى شيء من حياة جده في لبنان عندما كان وأسرته لاجئين في بداية الاحتلال عام (1948م) أما العرض فيبدأ بقوله:

((كان يأخذنا لنقف معه في طابور الشحاذين: كل واحد يحمل سلة صغيرة، وعيناه على الأرض، واقفاً في الدور حتى يقترب من موزع الفتات ويعطيه قطعة من الجبن الأصفر.. وحبات من التمر.. وحفنات من الطحين. وكان ذلك أول عهدي بالجبن الأصفر..))[4].

ويخلص الكاتب بأسلوب جميل وتدريجي إلى فكرة التي يريدها أن يعرضها وهي حب الوطن، فالوطن باق لا يموت حتى في قلوب الأطفال الذين تربوا على الجبنة الصفراء، وذاقوا طعم اللجوء وقسوة الحياة. فالفلسطيني يعيش قضيته يومياً وهو مرتبط بالوطن أشد الارتباط. وبذلك خاب أمل وكالة الغوث التي كانت تتوقع أن هذا الجيل سوف يخضع للسلام، لأنه جائع وعريان ولا يملك شيئاً ليتعلق بوطنه:

((تقرير وكالة الغوث.. وكالة الصدقات.. وأجراس الذل والعار، الذي تبحثه الأمم المتحدة هذه الأيام، يشير التقرير، بلغة رسمية، إلى ازدياد عدد اللاجئين المضطرد.. وإلى ازدياد حاجتهم إلى الطحين والجبن الأصفر والخيام، واهم من ذلك

---

(1) في الأدب الحديث، عمر الدسوقي: 1/ 393. وينظر: النثر العربي في نماذجه وتطوره: 93.
(2) فن المقالة: 131.
(3) شيء عن الوطن: 200.
(4) المصدر نفسه: 201.

ازدياد تعلقهم بوطنهم الذي ابعدوا عنه ظلماً.. وإلى ازدياد تمسكهم بحقهم في العودة..))[1].

وينهي الكاتب مقالته بعبارة قوية الدلائل والتأثير ونتيجة متوقعة لما قبلها لتمثل الصمود الفلسطيني من أجل الوطن فيقول:

((كل خطوة في طريق الغربة.. وكل نسمة... وكل لسعة برد في ليالي الغربة تصنع الحب الأسطوري للوطن الأسطوري: فلسطين التي لم ينساها. لا، لن ينساها، لأنها الحياة والموت معاً))[2].

ونظير حسن الخاتمة هذا ما تمثله مقالة (الحقيبة والمفتاح) إذ يعرض الكاتب صورة من صور انهيار المجتمع الصهيوني بعد أن أصبحت الهجرة عكسية من إسرائيل إلى البلدان الأخرى وتبدأ المقالة بالشكل الآتي:

((ليتني سمعت نصيحة زوجتي، وسافرنا إلى السويد، هكذا قال طيار إسرائيلي أسير في دمشق))[3].

ثم يعرض الكاتب الموضوع ويناقش مسألة الحقيبة والمفتاح، فالمهاجرون العرب يعودون إلى ارض الوطن وهم الآن يجلسون على الحقائب في حين أن المهاجرين اليهود يفكرون ويعيدون النظر بمصير مهتز وبوعود كاذبة قدمتها لهم القيادة الصهيونية لإنشاء وطن قومي لليهود. وهكذا فإن حرب الحقائب والمفاتيح تدور الآن في فلسطين وبناء على تلك المقدمة وذلك العرض جاءت الخاتمة لتوضح النهاية لتلك الأحداث فيقول درويش:

((انه يجب أن تنصب لافتة في مطار اللد، تحمل الرجاء التالي: يُرجى من المسافر الأخير ألا ينسى إطفاء النور في المطار))[4].

ولمحمود درويش نوع آخر من الطريقة الفنية في كتابة الخاتمة لغرض جذب انتباه المتلقي وجعله يشارك الكاتب في عرض المقالة من بدايتها حتى نهايتها وذلك ما نراه في مقالة (الخروج الثاني من سيناء) إذ نلاحظ أن الكاتب يبدأ المقالة بصيغة فعل الأمر فيقول: ((**أذهب إلى الحرب.. تصل إلى الولادة..**))[5].

ثم يبدأ بعرض الأحداث التي تدور حول الحرب والولادة، فالحرب تعني إلغاء المعاهدات وإلغاء الهدنة وتعني الانتماء إلى العالم والحرية والصمود والتحرير:

---

(1) المصدر نفسه: 204.
(2)المصدر نفسه: 207.
(3) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 59.
(4) المصدر نفسه: 61.
(5) المصدر نفسه: 38.

((**نقف اليوم لإلغاء الهدنة التي عقدناها مع ريح الصدفة. تنتمي إلى العالم حين نخالفه. تنتمي إلى حياتنا حين نهددها. ننتمي إلى الوطن حين نستبدل صلواتنا بالقذائف.. ننفجر.. ننفجر، ونفجر.. هكذا تكون الأعياد**))[1].

وفي المقابل يعاني الصهيوني من هزيمة معنوية ومادية في آن واحد حين انكشفت أهداف الصهيونية في (أرض الميعاد) و(أرض السمن والعسل) وانكشف المشروع الصهيوني، وأصبحت العلاقة بين السلطة الصهيونية والمواطن سيئة جداً. أما العرب فقد انتصروا في معارك سيناء حين أجبرت القوات الصهيونية على الانسحاب بفضل الإرادة العربية في تحرير البلاد وهكذا فإن الولادة بالحرب والانتصار وعلى ذلك جاءت الخاتمة بالشكل الآتي: ((**نحن نذهب إلى الحرب فنصل إلى الولادة**))[2].

وقد نتخذ المقالة عند محمود درويش شكلاً آخر في تلخيص الموضوع وتأكيده ففي مقالة (بطاقة إلى دمشق) جاءت الخاتمة تكراراً للمقدمة فيقول:

((**ساعي البريد ينتظر**
والفراشة تحارب
ولا تنتهي رسالتي يا دمشق))[3].

وتأتي أهمية الخاتمة في تأكيد المقدمة لدى الكاتب عند التركيز على الحس القومي فهو يرسل كل المحبة والتقدير والسلامة إلى ارض دمشق العربية.

ونظير تلك الخاتمة جاءت مقالة (بيت مسكون بالأشباح) التي استلهمها بقوله: ((**حدث شيء كثير، وعادوا إلى طقوس البكاء القديم. هل تغيروا؟ ولم ينس محدثي المثقل بالأمل المتجدد أن يبدي اعتزازه بتفاصيل الذكريات. نفض الغبار عن الشريان الممتد إلى يافا. وقال: تعال إلى الشرفة لتطل على رائحة البرتقال القادم من هناك. لقد اشتعل الربيع في فلسطين. ومد يده ليقلد قامة العشب الذي رآه في الأسبوع الماضي في فلسطين الحزينة كما هي.. كما هي.. بساط أخضر يطلع من السر فجأة ويتفجر برقوقا وكل الألوان**))[4].

وبعد هذا الاستهلال يعرض الكاتب لموضوعه الذي يصور مشاعر الفلسطيني تجاه الوطن ومن ثم تجاه البيت الذي يسكنه قبل العدوان، ويعرض هذا الصديق لحوار طويل دار بينه وبين أصحاب الدار الجدد (اليهود).

---

(1) المصدر نفسه: 39.
(2) المصدر نفسه: 40.
(3) وداعاً أيتها الحرب. وداعاً أيها السلام: 46.
(4) المصدر نفسه: 106.

وبعد العرض تأتي الخاتمة لتؤكد حب الوطن والتضحية على إعادة الأرض المغتصبة فيقول: ((**قال محدثي: تعال إلى الشرفة لتطل على رائحة البرتقال القادمة من هناك ما زالت الأرض كما هي: بساط أخضر يطلع من السر فجأة ويتفجر برقوقا وكل الأزهار وكل الألوان**))[1].

ومن مقالاته التي تبدأ بالتساؤل وتنتهي به مقالة (الحصار) إذ جاء الاستهلال هكذا ((**ماذا يعرف القارئ العبري عن حركة الأدب العربي هنا؟.**))[2] وبعد الاستهلال يأتي عرض المقالة التي تنتقد السياسة الإسرائيلية في فرض الحصار الثقافي والأدبي. وبعد طرح الأفكار والمعالجات تنتهي المقالة كذلك بالتساؤل الآتي:

((**ماذا يعرف القارئ العبري عن حركة الأدب العربي هنا؟.**))[3]. وذلك لتؤكد الحصار المفروض على الأدباء والكتاب العرب بشكل عام، والأدب العربي في فلسطين خاصة.

---

(1) المصدر نفسه: 113.
(2) شيء عن الوطن: 43.
(3)شيء عن الوطن: 43.